يَا حَفِيدِي

استبق السنين الضوئية

أ.د. سَمِير الشَّاعِر

أستاذ جامعي وخبير مالي وإداري وشرعي

2021م – 1442هـ

جدول المحتويات

المبحث الأول: موجز تاريخي تمهيدي 4
عهد النبوة (1-11هـ/ 622-632م)... 5
الخلفاء الراشدون (11-40هـ/632-661م)... 5
الدولة الأموية (41- 132هـ /661-750م)........ 6
العباسيون (132-656هـ/750-1258م)... 6
الدول التي استقلت عنها........ 7
المماليك (648-922هـ/1250-1517م)........ 7
العثمّانيون (923-1343هـ/1517-1924م)........ 7
الدول المتزامنة مع الدول الرئيسية 8
جدول الدول الإسلامية بترتيب مدة الحكم 8
العالم الإسلامي اليوم: 9
المبحث الثاني: مناقشة بعد الموجز التمهيدي........ 11
الفتنة الأولى: الاقتتال بالآلات على السلطة........ 12
1. اضطهاد العلماء: 13
2. اضطهاد المرأة: 14
الفتنة الثانية: الاقتتال بالفكر على الدنيا 17
المبحث الثالث: مرحلة التاريخ القديم: الافتتان بالفلسفة........ 18
البيئة الفلسفية 20
جدول بأشهر أعلام الفلسفة المسلّمين 22
المبحث الرابع: مرحلة التاريخ الحديث........ 24
الثورات الصناعية الأربعة........ 25
أولاً: الثورات الصناعية الثلاث: 26
1. الثورة الصناعية الأولى: 26
2. الثورة الصناعية الثانية: 26
3. الثورة الصناعية الثالثة 27
النتائج الأساسية للثورات السابقة........ 27
ثانياً: الثورة الصناعية الرابعة 28

ميزاتها 29
التحدي الثقافي 30
همسة في أذن ابنتي 31

يا حفيدي

كُنْ على قدر الأيام القادمة، ولا تستعظم فيها ما سترى، وسأوجز لك بعض ما كان، لتستوضح ما سيكون بين يديك.

المبحث الأول

موجز تاريخي تمهيدي

بُعِثَ النبيُّ مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم في حقبة زمنية تُسمَّى الجاهلية، وهذا النَّعت مردُّه إلى الخِواء السياسي والاجتماعي والفكري مع نظام اقتصادي مشوَّه.

فالعربُ وزَّعوا أنفسَهم بين الفرس والروم، ولأسباب كثيرة منها المقبول ومنها المرذول، وبالمقابل تخلُّوا عن كثير من حميد طباعهم حتى أضحوا مزيج غريب مسخ، فلا هم على شاكلة الأقوياء (الفرس والروم) ولا استمرُّوا على سَمْتِ الآباء والأجداد أحفاد الأنبياء، صلوات الله عليهم جميعاً.

وهذا التشرذم تغلغل فيهم **سياسياً**، فتفرَّقوا مشارب وجماعات تتناحر كلَّما اختلفت فارس والروم، هذا على هامش فراغهم من التقاتل فيما بينهم لتافه الأسباب أو جليلها.

واقتصادياً، كانت الفُرقة أشدُّ وأنكى حتى استعبدَ الأغنياءُ الفقراءَ، والأقوياءُ الضعفاءَ، وباتوا يتفاخرون بالثروات، لا همَّ لهم أكانت من كدِّ اليمين والعمل بشرف، أم من البغاء والرِّبا أو السَّطو على الأقربين والأبعدين ممَّن لا حامي لهم.

واجتماعياً، لم يكن الأمر أفضل. فليس أوَّله زوجات لا حصر لها في كلِّ مكان نزله الرَّجل، بجانب مِلْك اليمين (النَّساء من العبيد). وكانت الأحرار (العربيات) بنات

الأقوياء، للتفاخر والتصاهر، وليس آخره الاعتداء والظلم البيّن في جلِّ التعامل الإنساني في (البيت أو التجارة أو الجوار).

وفكرياً، فالحال كاد يكون بلا هوية، ومن كانت منهم له مضغة وعي، فمستشارهُ واحد من أهل الكتاب (اليهود أو النصارى)، وهو ما سطَّرَته السيرة في بدايات الدعوة.

عهد النبوَّة (1-11هـ/ 622-632م)

في هذه اللوحة، نهضَ النبيُّ مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم بدعوة لتوحيد الله وتَرْك ما عبد من دونه، ولم تكن البداية سهلةً متيسرة. فأصحاب المناصب غاروا على سطوتهم، وأصحاب المصالح خافوا على أرزاقهم، وأضعفهم أهل الفكر (أو أهل المشورة) كانوا حيارى. أمَّا البقية الساحقة ضعاف المجتمع وفقراؤه، فنظروا بتربُّص للأمر على أنَّه باب فرج محتمل، فالجريء منهم ذاقَ الصِّعاب عندما جاهر باكراً، أو المشقة إذا جاء تالياً، إلى أن فتح اللهُ على رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

الخلفاء الراشدون (11-40هـ/632-661م)

وبعد وفاة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ارتدَّ قومٌ ممَّن ظنُّوا أنَّ دعوته ستموت بموته، وامتنع قوم عن بذل المورد المالي (الزكاة) متأولين "**خُذْ**" الواردة في الآية الكريمة؛ أنَّها كانت حصراً للنبيِّ مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، فهذا التأويل يناسب هواهم بالحفاظ على ما تهواه النفس ويعشقه القلب "**المال**".

تولَّى **أبو بكر** رضي الله عليه، والحال هذه قد انبثت قلقاً وارجافاً في قلوب المؤمنين، فشدَّ أزر الصحابة وجمَعهم على نصرة دِين الله، فوفَّقه الله واستقرَّت الأمور.

خلَفَ **عمرُ**، رضي الله عنه، الصِدِّيق وتابع المسيرة التي بدأت تزداد استقراراً وانفتاحاً، وانتشر الصَّحابة في أصقاع البلاد الجديدة، وظهرت بعض الأمور التي حرص الفاروق رضوان الله عليه أنْ ينقِّيها حفاظاً على الدِّين، فانبرى لإنكار بعض الأفعال والأقوال المتأتية من نقص المعلومة (في العلم)، وعمل على نشر العلم وأهله في الأمصار، وأرسى دعائم الدولة القوية وأسَّس لها مؤسَّساتها. فشهد عهده سعة الفتوحات وزيادة الثروات، وتعاظمت أحقاد بعض أبناء الإمبراطوريات الغابرة فدسُّوا وكادوا بالمباشر وغير المباشر، حتى قتله أبو لؤلؤة.

واستهلَّ **عثمانُ**، رضوان الله عليه دولة عظيمة اختفى داخلها وعلى حواشيها الطامعون والماكرون وغيرهم، فكانت الفتن والقلاقل وبعضها بثياب النَّصائح اشتدَّ عودُها، حتى رَمَتْهُ مضرَّجاً بدمائه فوق مصحفه.

فتسلَّم **عليٌّ**، رضي الله عنه، كرة النَّار وسار بها، إلى أنْ وقع **اقتتال الأخوة على السلطة**، وكان بداية ظهور الفرق المتكاثرة حتى تاريخه.

الدولة الأموية (41- 132هـ /661-750م)

بدأت دولة بني أميَّة، ووطَّدت أركانها بعد احتراب داخلي، وأقصاه قصف (قذف) الكعبة بالمنجنيق، واستقرَّ أمرُها عامة في الشَّام وبلغت فتوحاتها المغرب والأندلس. وبرز من خلفائهم عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، وعُرف بالصَّلاح والتقوى، ولقَّبه البعض بالخليفة الراشد الخامس. غير أنَّ ظُلم آل البيت بشقَّيهما (الطالبي- أنصار علي، والعباسي- أنصار العباس) كان يتَّقد تحت الرماد، حتى خرجت عليهم الدولة العباسية فأسَّس بنو أميَّة دولتهم في المغرب والأندلس (138 - 897هـ).

العباسيون (132-656هـ/750-1258م)

ظهر العباسيون ومن ناصرهم من القوميات المختلفة، ووطَّدوا أركان دولتهم في بغداد، ووُصِف عهد هارون الرشيد رحمه الله، وولده المأمون ومن قاربهم بالفترة الذهبية

في الفكر والعلوم، وبالمقابل كانت فتنة خَلْق القرآن زمن المأمون والتي عمَّقت الجراح في جسد الأمة.

وبعد مائة عام على التأسيس، بدأ الضعف يدبُّ في أوصال الدولة العباسية، فخرجت واستقلَّت عنها العديد من الدول، وفي مقدَّمها الدولة الفاطمية، ثمَّ كانت الدولة الأيوبية (المنبثقة عن من الدولة الزنكية)، والتي تميَّزت بفتح صلاح الدِّين للقدس الشريف، ووَرِث المماليكُ الدولةَ الأيوبية.

الدول التي استقلَّت عنها (1)

1. الدولة الرستمية (161 - 296هـ)	10. الدولة الخوارزمية (470 - 628هـ)
2. دولة الأدارسة (172 - 375)	11. الدولة الغورية (598 - 602)
3. دولة الأغالبة (184 - 296)	12. دولة مماليك الهند (602 - 686)
4. دولة بني زيري بالمغرب (362 - 547)	13. الدولة الفاطمية (297 - 567)
5. الدولة الطولونية (254 -292)	14. حروب ممالك الصليبية (489 - 648)
6. الدولة الأخشيدية (324 - 358)	15. الزنكيون (521 - 660)
7. دولة بني حمدان (293 - 392)	16. الأيوبيون (564 - 648)
8. الدولة السامانية (261 - 389)	17. دولة المماليك البحرية (648 - 784)
9. الدولة الغزنوية [السبكتكينية] (366 - 582)	18. دولة المماليك الشراكسة أو البرجية (784 - 992)

المماليك (648-922هـ/1250-1517م)

وبعد سقوط الدولة العباسية في بغداد على يد المغول، حارب المماليك التَّتار (مجموعة من المغول) وانتصروا عليهم في موقعة عين جالوت الشهيرة، ثمَّ ضعُفت دولتُهم وسقطت على يد العثمَّانيين.

العثمَّانيون (923-1343هـ/1517-1924م)

بعد فتح القسطنطينية على يد مُحمَّد الفاتح وهزيمة الإمبراطورية البيزنطية، توطَّدت أركان الدولة العثمَّانية في الأناضول، ثمَّ توسَّعت لما يُعرف اليوم بالعالم الإسلامي، وورثت الدولةَ العباسية، ثمَّ ضعُفت حتى حُلَّت عام 1924م.

(1) الموسوعة الميسرة للتاريخ الإسلامي.

الدول المتزامنة مع الدول الرئيسة

واعلم، أنَّه تزامن مع الدول السابقة وعلى حواشيها العديد من الدول التي تصارعت مع الدولة الرئيسية أو استقلَّت عنها جزئياً أو بالكامل، وشهدت الفترات المختلفة السابقة وحتى اليوم الكثير من الاقتتال الداخلي والبيني. وانعكس ذلك مزيد فتن و جماعات وفرق وأمراض مجتمعية أثَّرت على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لمجتمعاتها. واستعرضها المؤرخ الدكتور سهيل طقوش، كما يلي:

جدول الدول الإسلامية بترتيب مدة الحكم

وبتصرف خاص: أضفت مدة الحكم وأعدت عرضها بمقدار مدة الحكم

الرقم	الدولة	التاريخ الميلادي	مدة الحكم (تقريباً)
1	الخلفاء الراشدون	661 - 632	30
2	الأخشيديون	969 - 935	35
3	الطولونيون	905 - 868	38
4	الزيديون	868 - 820	49
5	الحمدانيون	1003 - 929	75
6	الزيديون	1018 - 943	76
7	الزيديون	1252 - 1173	80
8	المرابطون	1147 - 1061	87
9	الأمويون	750 - 661	90
10	الأيوبيون	1263 - 1174	90
11	الزنكيون	1233 - 1127	107
12	الأغالبة	909 - 800	110
14	السلاجقة	1157 - 1038	120
15	البويهيون	1055 - 932	124
16	السامانيون	999 - 874	126
17	الموحدون	1268 - 1130	139
18	حروب الممالك الصليبية	1291 - 1098	194
19	الأدارسة	985 - 788	198
20	الغزنويون	1186 - 962	225
21	الصفويون	1736 - 1501	236
22	الزيديون	1872 - 1635	238
23	بنو مرين	1516 - 1269	248
24	الفاطميون	1171 - 910	262
25	المماليك	1517 - 1250	268
26	الحفصيون	1573 - 1230	344
27	العباسيون	1258 - 750	508
28	العثمّانيون	1924 - 1288	637

العالم الإسلامي اليوم

أمَّا اليوم، فيُشكِّل المسلَّمون قرابة ربع العالم لناحية عدد السُّكان موزعين في القارات الخمس ضمن 57 دولة. (أعضاء منظمة التعاون الإسلامي) وهي التالية: [1]

1. أفغانستان 1969 (عضو مؤسس) --- [علقت عضويتها بين 1980 - مارس 1989]
2. الجزائر 1969 (عضو مؤسس)
3. تشاد 1969 (عضو مؤسس)
4. مصر 1969 (عضو مؤسس) --- [علقت عضويتها بين مايو 1979 - مارس 1984]
5. غينيا 1969 (عضو مؤسس)
6. تركيا 1969 (عضو مؤسس)
7. إندونيسيا 1969 (عضو مؤسس)
8. إيران 1969 (عضو مؤسس)
9. الأردن 1969 (عضو مؤسس)
10. الكويت 1969 (عضو مؤسس)
11. لبنان 1969 (عضو مؤسس)
12. ليبيا 1969 (عضو مؤسس)
13. ماليزيا 1969 (عضو مؤسس)
14. مالي 1969 (عضو مؤسس)
15. موريتانيا 1969 (عضو مؤسس)
16. النيجر 1969 (عضو مؤسس)
17. باكستان 1969 (عضو مؤسس)
18. فلسطين 1969 (عضو مؤسس)
19. السعودية 1969 (عضو مؤسس)
20. المغرب 1969 (عضو مؤسس)
21. السنغال 1969 (عضو مؤسس)
22. السودان 1969 (عضو مؤسس)
23. تونس 1969 (عضو مؤسس)
24. اليمن 1969 (عضو مؤسس)
25. البحرين 1970
26. الصومال 1970 (عضو مؤسس)
27. عمان 1970
28. قطر 1970
29. سوريا 1970 [علقت عضويتها في 14أغسطس 2012]
30. الإمارات العربية المتحدة 1972
31. سيراليون1972
32. بنغلاديش1974
33. الغابون 1974
34. غامبيا 1974
35. غينيا بيساو 1974
36. أوغندا 1974
37. بوركينا فاسو 1975
38. الكاميرون 1975

(1)منظمة التعاون الإسلامي.

39. جزر القمر	1976	
40. العراق	1976	
41. جزر المالديف	1976	
42. جيبوتي	1978	
43. بنين	1982	
44. بروناي	1984	
45. نيجيريا	1986	
46. أذربيجان 1991		
47. ألبانيا	1992	
48. قيرغيزستان	1992	
49. طاجيكستان	1992	
50. تركمانستان	1992	
51. موزمبيق 1994		
52. كازاخستان	1995	
53. أوزبكستان	1995	
54. سورينام	1996	
55. توغو	1997	
56. غيانا	1998	
57. ساحل العاج	2001	
58. زنجبار	1993	**انسحبت في أغسطس 1993**

وفي الكثير من شعوب هذه البلاد، جماعاتٌ تحلم بالدولة الجامعة التي تتوحَّد تحتها الكلمة والراية، غير أنَّ الواقع يزداد ابتعاداً عن مرغوبهم. ولأسباب بينية وبنيوية داخلية قبل أن تكون خارجية، أقلّها (1) عدم التزام مضمون حديث الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم "...لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ، ولا لِعجَمِيٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسْودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ، إلَّا بالتَّقوَى، إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ"[1]، (2) وترك العمل بأسباب التقدُّم والرقيِّ والتواكل بدل التوكُّل.

(1) مسند أحمد (22978).

المبحث الثاني

مناقشة بعد الموجز التمهيدي

بعد الاستعراض السابق، أحبُّ يا بنيَّ أن أشاركك بعض الأساسيات لتواجه قادم أيامك بيقين.

بدايةً، أيُّ ناظر للحال التي انتهت له الكينونة ذات الصفة الإسلامية يتألَّم لحال أهلها، لذا ستجد الكثير من الغضب بين شعوبها (1) الحالمة بعودة المجد الغابر (2) والمتراخية عن كثير جهد وعمل ينبغي لهم وعليهم.

ولكن لنا في رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم الأسوة الحسنة والأمل الطيِّب، فالبيئة التي بُعث فيها كانت أصعب وأقسى ممّا نحن فيه اليوم أو في الأمس القريب. فكما نهض، فعلينا أن ننهض، وكما سعى وعمل، فعلينا أن نسعى ونعمل. فلم تكن طريق دعوته معبَّدةً بالورود، ورغم ذلك بنى الرجال وأرسى الفكر و رسم الرؤية وعلَّمهم أنَّه على درب الحياة تُكتسب الآخرة، وأماط لهم اللثام عمَّن اختاروا طريق الرَّدى والهوان في الدَّارين.

وعليه، لا بدَّ لنا أن نعرف محطات انكساراتنا الرئيسية للعمل على تجاوزها، إنْ أردنا أن نبني في الواقع، وليس في الأحلام، كياناً يورثنا احترام الأمم.

الانكسارات يمكن تمطيطها وتوسعتها (تأويلها) كلٌّ من زاويته. ولكن بإمعان النظر في تاريخنا، نجد محطتين رئيسيتين هما:

1. الاقتتال بالآلات على السلطة.
2. الاقتتال بالفكر على الدُّنيا.

الفتنة الأولى: الاقتتال بالآلات على السلطة

امتطاها البعض بعد إنهاء الخلافة الراشدة واستهلال حكم بني أميَّة، وبكثير من الحزن لا زالت الشرارة الأولى لكثير مما شاهدنا ونشاهد وسنشاهد. فجلُّ المتناولين لها يعيدون نبش التاريخ، ليس للاعتبار أو المحاكمة العادلة والعقلانية، بل لبناء حجَّة لما يذهبون إليه، من تأييد منحى تاريخي ما، أو فرقة معيَّنة.

وما نشهده من احتشاد وتجييش طائفي ومذهبي وغير ذلك؛ دليل نافر على التوظيف لتحقيق الزعامة أو المكانة السياسية، ولو على سبيل الفرقة والاحتراب. ورغم مرارة الأمر، إلا أنَّه ليس الخطر الأساس الذي أحذِّركَ منه.

وهذه الفتنة مستمرة حتى اليوم، وإنْ بأشكال جديدة تفارق الأسلوب القديم بالوسيلة، إلا أنَّها تجاريه بالهدف، وإنْ خفَّ لظَى نارها مؤخراً بعد أن أصبحنا دولاً متعددة، منها الراغبة بالاستنصار بالبعيد على الجار والقريب، ومنها المنكَفِئ على ذاتها وصراعاتها الداخلية، وكلهم تقريباً يشغلهم همُّ الاكتفاء الذاتي، وتأمين احتياجات مواطنيه.

فالقليل ممَّن حباه الله بالثروة النفطية، سلك درب التقدُّم المادي من أوسع أبوابه، ولكن بإدارات متفاوتة في الكفاءة والإنجاز. ومسيرة عامَّتنا متثاقلة بتبريرات غير علمية، يعلوها الكثير من الأنا والذات المنتفخة على غير هدى. وأكاد أقول ينطبق على كثير من أوضاعنا وأحوالنا اليوم ما يُنسب لأينشتاين **من القول: "لا داعي أن يتآمر عليك أحد، ففيك من الغباء ما يكفي للتآمر على نفسك"**.

وفي جميع مراحل التاريخ المدوَّن، سُجِّل الاضطهاد للضعفاء أفراداً وجماعات، وانشغلنا بكثير احتراب داخلي على حساب توطين العلوم وتقدُّم الشعوب. فوجدنا من عهود بني أمية والعباسيين والعثمَّانيين، وإنْ بدرجات متفاوتة، منهجين أساسين:

1. اضِّطهاد أهل العلم؛
2. اضِّطهاد المرأة.

وأعلمْ يا بنيَّ، أنَّهما المِعْوَلَيْن الأمضى والأقوى في هدم الأمم. **فالأول** يهدم التعليم ولا قيامة لأمَّة أو دولة دون تعليم. **وبالثاني** تهدم الأسرة، فينعدم المجتمع، ولا ينهدم، ونصبح مجتمعات مشوَّهة لا صلة لها بجذورها وتاريخها، وبالتالي لا حاضر أو مستقبل لها، فأرقبْ وتبصَّر.

1. اضطهاد العلماء

اتَّخذَ اضِّطهادهم العديد من الصُّوَر، بِدْءاً من أقبحها إجراماً، إلى المباشر المبسَّط منها. فإنْ تركنا القتل والتنكيل والصُّوَر البشعة التي سطَّرها التاريخ، نجد ابتداع "سَجْن العلماء" بهدف عنوان علمي. فقد سُجن العلماء جماعات وأفراد بغرض تحريضي، كمن سَجَن العلماء، ولفترات غير قصيرة لتحديد الحرف الذي هو وسط ومنتصف القرآن. وبعد سماع جهود كلِّ فرقة أو جماعة من العلماء، نضارب إجاباتهم ببعضها لتمديد وتجديد سجنهم بغرض علمي للوصول لهذا الحرف. وتُردُّ النتيجة مرة تلو المرة وبحجج منها: "هل اعتبرتَ المنطوق غير المكتوب حرف، أو قرأتَ على حرف قريش أم حرف قبيلة كذا؟" وغير ذلك، ممَّا تمدد به فترات السجن للعلماء العاملين.

ففَهِم العلماء الآخرون الدَّرس، واعتزلوا السياسة (أمور المُلك) وأهلها وسجنوا أنفسهم بحِلَق العلم. ووجدنا ميلاد جيل جديد من الكتابات، ليس المؤلفات الجديدة، بل التعليق على الكتاب، ثمَّ جعله حاشية، ثمَّ الحاشية على الحاشية، وهكذا حتى وجدنا متوناً انشغل أهل العلم بها، وبوجهات نظر جديدة للحواشي لعقود وحتى قرون، وما ماثل ذلك الكثير. فانكفأت الحركة العلمية المضيفة للإنسانية ومجتمعاتها وانحدر الوضع الاقتصادي، وتبعه التدهور الاجتماعي. وكلُّ هذا أجَّج الصراعات السياسية باسم الدِّين والغيرة على الإسلام، والله تعالى أعلمُ بالنوايا.

والغريب الخطير أنَّ اللاحقين ظنُّوا النتاج السابق في فترات الأزمات هو نهج الانتاج الفكري الديني والعلمي الإسلامي، فغدونا نُغذِّي الدوامة التي تسحبنا بقوة

جذبها للأسفل، فأصبحنا بأيدينا وعقولنا وقود الأفكار الجامدة وأدوات الاقتتال الداخلي بعناوين، للأسف، دينية.

وانطبقت علينا قصة تلك الشابة التي عهد إليها بتحضير السَّمك لطبخه أن أخذت بقطع الرأس منه، فنَهَتْها زميلاتُها، فدافعت عن ذلك بأنَّ بقاء الرأس يفسده، كونها اعتادت أن تراه على مائدتها بلا رأس. ولكنَّهم قالوا لها: نحن نحبُّ أكل الرأس من السَّمك، فاستغربتهم ولم تقتنع، واتَّصلت بوالدتها لتتيقَّن طريقة الطبخ السليمة. فأخبرتها والدتُها أنِّي ورثت تحضير السَّمك بلا رأس عن أمِّي، سأتَّصل بها. وبمكالمة جماعية سمعت الشابة جوابَ الجدَّة، أنَّهم كانوا فقراء لا يملكون مقلاة واسعة، لذلك، كانت تقطع رأس السَّمك.

2. اضطهاد المرأة

في الجاهلية وقع العرب في العديد من الممارسات غير اللائقة بالمرأة متأثرين بالفرس والروم، رغم مشاركة المرأة الاقتصادية والفكرية والتصدي للاقتتال وحماية القبيلة فضلاً عن الشاعرات. فجاء الإسلام لينكر وأد البنات والاعتداء على المرأة ذمَّةً وجسداً، وأنزلها المكانة التي تليق بها كمكلَّفة شرعاً. واستمرَّ الأمرُ لبدايات النصف الثاني من حكم بني العبَّاس، ثمَّ استوردنا مع الجنود المرتزقة أخلاقيات احتقار المرأة وحجرها وتقييد انفتاحها، وامتد ذلك حتى نهاية الدولة العثمَّانية. وورثنا ذلك عنهم حتى بداية التحرُّر من الاستعمار الانجليزي والفرنسي وغيره، ثمَّ انتهضت المجتمعات لتعيد الرونق لدور المرأة الذي كفله وأضاف عليه الإسلام.

فمَن أورثونا ثقافة احتقار المرأة، أبناء وجيران البيئة الآسيوية والأوروبية. ويشهد التاريخ المدوَّن من قبلهم أنَّ أوروبا انشغلت، ولردح من الزمن، بالإجابة على سؤال: **هل تعدُّ المرأة إنسانًا أم غير إنسان؟! وهل لها روح أم ليست لها روح؟! وإذا كانت روحًا فهل هي روح حيوانية أم روح إنسانية؟! وإذا كانت إنسانية فهل هي على مستوى**

روح الرجل أم أدنى منها؟! وفي النهاية قرروا أنَّها إنسان، ولكنَّها خلقت لخدمة الرجل فحسب.

موجز رصدي لتاريخ النظر للمرأة: [1]

ففي عام 586م عقد **الفرنسيون** مؤتمرًا للبحث: هل تعد المرأة إنسانًا أم غير إنسان؟! وهل لها روح أم ليست لها روح؟! وإذا كانت روحًا فهل هي روح حيوانية أم روح إنسانية؟! وإذا كانت إنسانية فهل هي على مستوى روح الرجل أم أدنى منها؟! وفي النهاية قرروا أنها إنسان، ولكنها خلقت لخدمة الرجل فحسب.

وأصدر **البرلمان الإنجليزي** قرارًا في عصر هنري الثامن ملك إنكلترا يحظر على المرأة أن تقرأ كتاب «العهد الجديد» أي الإنجيل المحرف؛ لأنها تعتبر نجسة.

أيام الخزي:

- **الحضارة الإغريقية**: قالوا عنها إنها شجرة مسمومة وهي رجس من عمل الشيطان وتباع كأي سلعة متاع.
- **الحضارة الرومانية**: ليس لها روح وأنها مثل البعير ولا تستحق الحياة أو الخلود بل إنها أحبولة الشيطان. ففي بعض أبحاث الجندر «علم النوع الاجتماعي» أكدوا على أن المرأة في تلك الحضارة كانت تلقى أشد العذابات حتى كان من صور عذابها أن يصب عليها الزيت الحار، وتسحب بالخيول حتى الموت.
- **الحضارة الصينية**: قالوا عنها إنها مياه مؤلمة تغسل السعادة، وللصيني الحق أن يدفن زوجته حية وإذا مات حق لأهله أن يرثوه فيها.
- **الحضارة الهندية**: ليس الموت ولا السم ولا الجحيم ولا الأفاعي ولا النار أسوأ من المرأة، وأنها يجب أن تحرق بعد ممات زوجها.
- **الحضارة الفارسية**: إنهم قد أباحوا الزواج من المحرمات دون استثناء! كما أنه كان يجوز للفارسي أن يحكم على زوجته بالموت وأن يفعل بها ما يشاء، فهي ليس لها الحق في أي شيء.
- **المرأة عند اليهود**: لعنة لأنها سبب الغواية، ونجسة في حال حيضها، ويجوز لأبيها بيعها بالإضافة أنهم تعاملوا مع المرأة كأنها جسد لا أكثر ولا أقل ونزلوا بها إلى قاع الانحطاط والشهوانية الحيوانية المفرطة فكانت بذلك ملاذهم الوحيد للمتعة.
- **المرأة عند العرب قبل الإسلام**: كانت تبغض بغض الموت، بل يؤدي إلى وأدها وإن كان القرآن يقدم أبلغ تصوير وأصدق تعبير عن تلك الفترة حيث قال الله تعالى «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون» (النحل 59،58) وكانوا إذا مات زوجها كان لهم الحق في أن يزوجوها أو يتزوجوها أو يتركوها حتى تموت ثمَّ يرثونها، وكان ليس لها الحق في الميراث أو الحكم أو الرأي كانت بالمعنى الفعلي كسلعة للمتعة أو للخدمة.

(1) أحمد منتصر، هل المرأة إنسان أم لا؟ هل لها روح؟، https://www.sasapost.com/ و https://www.al-jazirah.com/magazine/08102002، وغيرها، بتصرف.

حتى إن بعض **علماء الاجتماع والإنتروجرافيا** مثل لويس مورجان وفريدريك إنجلز يقولون إن التاريخ البشري عرف أولًا ما يسمى بعصر «الشيوعية الجنسية» أي أن المرأة كانت مشاعًا لأي رجل في أي وقت وتحت أي ظرف.

وفي مقابل هذه الحقبات المظلمة، كانت نساء العرب والمسلمين تتصدَّر مجالس العلم والفقه، وتقضي بين الناس، وتؤلف وتكتب الشعر وتقود القبائل، وغير ذلك. وبعد كل هذا التأكيد على استقلال ذمَّتها المالية، وأنَّها ترث وتورث، وتُنشِئ الأوقاف وتعمر البلاد، إضافة إلى كونها أمٌّ ومربية وحاضنة.

وبسبب مكانة المرأة في الإسلام، لم يجرُؤ مستوردو أفكار أوروبا ومحيطها أن يدخلوا على مجتمعاتنا حزام العفة [1] الذي ألبسه الأوروبيون للنِّساء عند مغادرة الرجال منازلهم، واشتهر ذلك في دوائر الملك عندهم قبل عامتهم. والحمدُ للّٰه، رفعة نسائِنا على مرِّ التاريخ، وحتى اليوم، انطبق عليهنَّ قول المرأة التي استهجنت بين يدَيْ رسول صلَّى اللّٰه عليه وسلَّم الفِعل الشنيع قائلةً: "أَوَ تزني الحرَّة"[2].

واللافت أنَّ أوروبا اليوم، ومنذ منتصف القرن الماضي، تسعى وبخطى حثيثة لإعادة الاعتبار للمرأة كينونةً ودوراً ومكانةً، ونحن الوارثون لا زلنا على الموروث في بعض المجالات الآخذة بالتناقص مع مرور الزمن.

(1) حزام العفة أداة تصنع من الجلد أو الحديد، اخترع في إيطاليا عام 1400، تستخدم لمنع القيام بالفاحشة أو الاغتصاب وهو عبارة عن طوق له قفل يلتف حول خصر المرأة فيغلق الفرج باستثناء فتحات ضيقة لقضاء الحاجة، ويحتفظ الزوج بمفتاحه معه. المدينة نيوز، https://www.almadenahnews.com/article/497926.

(2) الطبقات الكبير لابن سعد، الجلد العاشر، حديث رقم 10159، https://islamarchive.cc/، متن الحديث: عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، أَنَّ نِسْوَةً أَتَيْنَ النَّبِيَّ صلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسلَّم فِيهِنَّ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَهِيَ أُمُّ مُعَاوِيَةَ يُبَايِعْنَهُ فَلَمَّا أَنْ قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ: " لا يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ ". قَالَتْ هِنْدٌ: يَا رَسُولَ اللّٰهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُصِيبَ مِنْ طَعَامِهِ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِ؟ قَالَ: فَرَخَّصَ لَهَا رَسُولُ اللّٰهِ فِي الرُّطَبِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهَا فِي الْيَابِسِ، قَالَ: " وَلا يَزْنِينَ ". قَالَتْ: وَهَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ؟ قَالَ: " وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ". قَالَتْ: وَهَلْ تَرَكْتَ لَنَا وَلَدًا إِلَّا قَتَلْتَهُ يَوْمَ بَدْرٍ؟ قَالَ: " وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ".

الفتنة الثانية: الاقتتال بالفكر على الدُّنيا

أورثتنا هذه الفتنة أوسع وأقصى وأضرَّ ممَّا أورثتنا الفتنة الأولى، خطوتها الأولى وبوابتها، للأسف، توظيف العلوم لتعاسة البشرية بدل إسعادها، والإضافة لها بما يرفعها إنسانياً وأخلاقياً وعلمياً.

وقد مرَّت بمرحلتين:

- التاريخ القديم (الافتتان بالفلسفة)
- التاريخ الحديث:
  - الثورات الصناعية الثلاث
  - الثورة الصناعية الرابعة (التي نعيش)

المبحث الثالث

مرحلة التاريخ القديم: الافتتان بالفلسفة

التاريخ أخبرنا بفترات ذهبيَّة للدولة الإسلامية، وخاصة الفترة الأولى لدولة بني العبَّاس، فكثُر نقل العلوم من الحضارات والثقافات الأخرى إلى اللغة العربية. وقد مرَّت بمرحلتين: (1) الأولى اعتَرَتْها عيوب الترجمة، فأورثتنا تخبُّط فكري، (2) و الثانية امتازت بالترجمات المتقِنة لعلوم الآخرين، فأهدتنا الكثير من الطيِّب، وتخلَّلها بعضُ الخبيث.

انكبَّ العلماء والباحثون والمتفقهون وأهل الفكر والرأي على مستورد العلوم، فهضموها وأضافوا للكثير منها، بل وأهدوا البشرية العديد من الإضافات العلمية والمعارف الجديدة التي لم تعرفها الحضارات الغابرة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وعلوم الفلك والجغرافيا والطبِّ والكثير الكثير غيرها، إلا أنَّ المنطقة الفاسدة، أو المفسدة، أو التي استُغلَّت للإفساد كانت الفلسفة. **فلماذا؟**

الجواب: يمكن أن يطول وبشكل غير عادي ويمكن أن نوجزه ونبني للاعتبار، بالآتي:

ما طبيعة الفلسفة، و ما غرضها؟ ومن هو الفيلسوف؟ وما هي مواصفاته؟

أصل كلمة **فلسفة**؛ هو اختصارٌ لكلمتَين يونانيّتين، هما: فيلو(Philo) وتعني: حُبّ، وسوفيا (sophia) وتعني الحِكمة؛ أي إنَّ **معنى الفلسفة هو حُبُّ الحِكمة**. [1]

واصطلاحاً: تُعرَّف الفلسفة بأنَّها جملة من الأفكار الفلسفية القديمة والحديثة التي تبنَّاها عددٌ من الفلاسفة وفقًا لرؤيتهم الفلسفية، ونظرتهم إلى الظواهر الطبيعية والوجود، أو بعض المواقف الحاصلة في حياة الناس اليومية. ومن أبرز الفلاسفة المؤثرين والتي كانت أفكارهم بمثابة الطريق التي مهَّدت لمن بعدهم للإدلاء بأفكارهم

(1) محمد فيضي، تعريف الفلسفة، https://mawdoo3.com، بتصرف.

الفلسفية: **سقراط**، **أفلاطون**، **وأرسطو**، بالإضافة إلى الفيلسوف وعالم الرياضيات المعروف **فيثاغورس**، وهو أولُّ من أطلق على نفسه لقب الفيلسوف. [1]

وعُرِّف **الفيلسوف** بأنَّه من يتقنُ طرح الأسئلة التي تُحسِّن من جودة الحياة.

وعُرِّف [2]: هو الشخص الذي يمارس الفلسفة التي تنطوي عليها التساؤلات العقلانية في دوائر خارجة عن العلم والعقائد اللاهوتية الدوغمائية.[3]

وللدلالة على أهمِّ **مواصفات الفيلسوف**، أذكر لك أنَّ أفلاطون جعل من شروط القبول في مدرسته لتعلم الفلسفة، "اتقان قدر كبير من الحساب، وكان معظم ما حدث من التقدُّم في علوم الرياضيات في القرن الرابع على أيدي رجال ممَّن درسوا فيها. وكان منهاج الرياضات يشمل الحساب (نظرية العدد) والهندسة الراقية، والفلك، والموسيقى (تتضمن غالباً الأدب والتاريخ)، والقانون، والفلسفة؛ وكانت الفلسفة الأخلاقية والسياسية آخر الدراسات في هذا المنهاج". [4]

(1) مجموعة مؤلفين، تعريف الفلسفة، https://sotor.com، بتصرف.

(2) https://ar.wikipedia.org/.

(3) الدوغمائية هي كلمة يونانية تعني "**الرأي**". * أصبح مصطلح "الدوغمائية" يستخدم للتعبير عن التعصب وفرض الرأي بالقوة بعيداً عن الإقناع والإيمان المطلق بامتلاك الحقيقة ورفض الرأي الآخر. * واستُخدم المصطلح اجتماعياً وسياسياً للتعبير عن المذاهب الفكرية المتعصبة البعيدة عن العقلانية والمنطق. http://www.methaal.com، بتصرف.

(4) https://www.marefa.org، بتصرف.

البيئة الفلسفية

بيئة السابقين: انطلق الفلاسفة في إِعمال عقولهم (فكرهم) لردِّ بحر الخرافات والأساطير التي سيطرت على مجتمعاتهم، ولنَقلِهم إلى شاطئ المنطق والعقل. وعمق التأمُّل والتفكير، وحُسن السُّؤال، أرشدَ إلى العلوم المختلفة.

بيئتنا: كتابُ الله وسُنَّة نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وفيهما الكثير من الإجابات التي شغلت السابقين، فقد قال تعالى: ﴿... **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان:2] فأغنانا عن كثير من الأسئلة الفلسفية الوجودية. كما أنَّ العديد من الآيات ذكرت أحداث حصلت للأمم السالفة، كالطوفان وغيرها، فأغنت عما يُحاك من خرافات وأساطير متعلقة بهذه الأحداث، وقِسْ على ذلك إخبار النبيِّ صلَّى الله عليه و سلَّم عن كثيرٍ ممَّا كان مع إخوانه الأنبياء عليهم السَّلام في الأمم الغابرة، وأحداث أخرى أيضاً.

أمَّا الواقع، فيشير إلى أنَّ القليل كان إضافتهم الفلسفية إيجابية في العلوم كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب، وغيرها. ولكن للأسف؛ العديد من أبناء جلدتنا خاضوا كما خاض الفلاسفة الأوائل وأورثونا الكثير ممَّا لا ينبغي ولا يليق. فكانت جهودهم سكِّينٌ حادٌّ زاد في تفتيت المقطَّع من أوصال الأمَّة، وألجأونا إلى علوم مختلفة للدفاع عن بيضة الإسلام من بعض أبنائه، وفي مقدِّمها علم الكلام.

ويكفي أنْ تعرف أنَّ منهم مَن دخل في الذَّات الإلهية، وتفضيل الفيلسوف على النبيِّ والرَّسول، وهناك من أنكر الآخرة أو بعض مواقفها، إلى غير ذلك ممَّا يُدمي القلب على المبدَّد من الجهود والطاقات المهدرة في غير إنجاز للمجتمع والإنسانية، فوجدنا المتفلسفين والرادِّين على الفلاسفة، فكانت الجماعات والفِرَق داخل المذهب الواحد، أو المجموعة الفكرية الواحدة. وأشير لحادثتين بينهما قرابة قرن من الزمان؛ **الأولى** رائدُها الغزالي. فبعدما استشعر ما يدور في مجتمعه، كتَبَ "تهافت الفلاسفة". **والثانية** ردُّ ابن رشد على الغزالي بعد وفاته بتسعين سنة بكتاب "تهافت التهافت". هذا الفاصل

الزمني واستمرار الاهتمام يوضح حقبة اتصفت بالجدل وتقاذف التُّهم بالجهل والتكفير، ولأعلام كبار في فنون كثيرة فقهية وعلمية.

جدول بأشهر أعلام الفلسفة المسلّمين [1]

العالم	الفترة	ملاحظات
يعقوب بن إسحاق الكندي	185-256هـ /805 - 873م	برع في الفلك والفلسفة والكيمياء والفيزياء والطب والرياضيات والموسيقى وعلم النفس والمنطق. ويعتبر أول الفلاسفة المتجولين المسلّمين. كما اشتهر بجهوده في تعريف العرب والمسلّمين بالفلسفة اليونانية القديمة والهلنستية.
الفارابي	260 - 339هـ / 874 - 950م	اشتهر بإتقان العلوم الحكمية. وكانت اهتماماته الرئيسية في علوم ما وراء الطبيعة. فلسفة السياسة. المنطق. الموسيقى. الأخلاق. نظرية المعرفة.
إخوان الصفا	القرن الثالث الهجري / القرن العاشر الميلادي	هم جماعة من فلاسفة المسلمين كانوا بالبصرة اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذلك العهد فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها "تحف إخوان الصفا". وهنالك كتاب آخر ألفه الحكيم المجريطي القرطبي المتوفى سنة 395هـ وضعه على نمط تحفة إخوان الصفا وسماه "رسائل إخوان الصفا."
ابن سينا	370 -427هـ /980 - 1037م	عالم وطبيب مسلم. اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما.
ابن الهيثم	354 -430هـ /965 - 1040م	عالم موسوعي مسلم قدم إسهامات كبيرة في الرياضيات والبصريات والفيزياء وعلم الفلك والهندسة وطب العيون والفلسفة العلمية والإدراك البصري والعلوم بصفة عامة بتجاربه التي أجراها مستخدمًا المنهج العلمي. وله العديد من المؤلفات والمكتشفات العلمية التي أكدها العلم الحديث.
ابن حزم	384 - 456هـ /994 - 1064م	يعد من أكبر علماء الأندلس وأكبر علماء الإسلام تصنيفا وتأليفًا بعد الطبري. وهو إمام حافظ. فقيه ظاهري. ومجدد القول به. كما أنه أديب. وشاعر. وفيلسوف.
الغزالي	450 -505هـ / 1058 - 1111م	كان فقيها وأصوليا وفيلسوفا. وكان صوفيّ الطريقةِ. شافعيّ الفقهِ. لُقّب الغزالي بألقابٍ كثيرة في حياته. أشهرها لقب "حجّة الإسلام". وله أيضاً ألقاب مثل: زين الدين. ومحجّة الدين. والعالم الأوحد. ومفتي الأمّة. وبركة الأنام. وإمام أئمة الدين. وشرف الأئمة.
ابن باجة	487 -533هـ / 1095 - 1138 م	من أبرز الفلاسفة العرب. اهتم بالطب والرياضيات. والفلك. والأدب. والموسيقى.
الإدريسي	493 -559هـ / 1099 - 1160م	أحد كبار الجغرافيين في التاريخ ومؤسسي علم الجغرافيا. كما أنه كتب في التاريخ والأدب والشعر والنبات ودرس الفلسفة والطب والنجوم في قرطبة.
ابن التلميذ	466 -560هـ / 1073 - 1165م	عالم اشتهر بالطب. والفلسفة. والأدب. والموسيقى.
ابن ملكا البغدادي	480 -560هـ / 1087 - 1165م	طبيب وفيلسوف.
ابن رشد	520 -595هـ / 1126 - 1198م	فيلسوف. وطبيب. وفقيه. وقاضي. وفلكي. وفيزيائي.
ابن سقلاب	556 -625هـ	درس فضلا عن الطب. الحكمة على رجل يعرف بالفيلسوف الإنطاكي.
ابن القف	630 -685هـ / 1233 - 1286م	كان طبيب وعالم وفيلسوف.
ابن النفيس	607 -687هـ / 1213 - 1288م	عالم موسوعي وطبيب. له إسهامات كثيرة في الطب. من مؤلفاته في المنطق: "شرح الإشارات" وكذلك "شرح الهداية لابن سينا"
أثير الدين الأبهري	؟ - 663هـ /؟ - 1264م	الحكيم. الفيلسوف.

(1) https://ar.wikipedia.org/wiki/. بتصرف.

ابن الخطيب	713 - 776هـ / 1313 - 1374م	درس الأدب والطب والفلسفة في جامعة القرويين بفاس.
صدر الدين الشيرازي	980- 1050هـ / 1572 - 1640م	خاتمة حكماء الشيعة جمع بين فرعي المعرفة النظري والعملي. ينسب إليه نهج الجمع بين الفلسفة والعرفان والذي يسمى بالحكمة المتعالية.

المبحث الرابع

مرحلة التاريخ الحديث

بعد الكثير ممَّا آلَ إليه وضع الأُمَّة عامة، منَّ الله على البشرية بالكثير من العلوم الحديثة والمخترعات الجديدة وفي مختلف مناحي الحياة في: "الصحة، التعليم، السكن، الانتقال، التواصل...."، ودعانا لنُسهم مع المبدعين والمخترعين ليكون لنا موطيء قدم بين شعوب الأرض.

غير أنَّ الواقع لا يرتقي للمأمول، بدليل الفجوة الزمنية بين مجتمعاتنا ومجتمعات الآخر، وجُلُّ دوَلنا تُصنَّف ضمن دول العالم الثالث، أو بلطيف الوصف، النَّامي.

والإنسانية تقف اليوم على أعتاب الثورة **الصناعية والتقنية الإلكترونية الخامسة (جي 5)**، وهي الجيل الذي يلي ما نتحدث عنه. وعليه، إنْ لم نتدارك، ستصبح الفجوة الزمنية بالسنين الضوئية.

بعد الفتنة الفلسفية، ها نحن مقبلون على فِتَن بمعايير ومقاييس مختلفة جداً. وخطورتها تكمن في تغلغلها داخل أدقِّ تفاصيل حياتنا لإعادة صياغتها على رغبة وميول روادها، ممَّا سيورثنا غريب الأفكار عن بيئتِنا وثقافتنا، ولن ينقذنا منها إلا ترك الجهل وإتقان العلوم المعاصرة، لنجد لنا موطأ قدم في عالم التقنية والتكنولوجية **الداهم**، وبدون استئذان نفسيَّات وعقول أطفالنا وشبابنا، ولن يوفِّر كبارنا.

أعلمْ يا بنيَّ، أنَّ التقانة ليست شرٌّ مطلق، إنَّما علينا أن لا نكون فئران تجارب لها أو مستهلكين سذَّج، بل مستخدمين واعين نوظِّف الجيد في مصلحة مجتمعاتنا، ونخفِّف أضرار السيِّء منها ممَّا يدعو لغير حميد الأخلاق، اجتماعياً، اقتصادياً، تربوياً، وسياسياً.

فنِّياً، يصنِّفُ الخبراء الثورات الصناعية التي حدثت خلال المائتي عام السابقة، وأثَّرت على طرق التصنيع والانتقال والاتصالات، كما أثَّرت على المجتمعات كالآتي [1]:

- الثورة الصناعية **الأولى**: عام 1784م، باختراع الآلة البخارية، حين بدأت ميكنة (مكننة) الإنتاج، وميكنة الانتقال بواسطة الطاقة البخارية.
- الثورة الصناعية **الثانية**: عام1870م، أي نحو 100 عام بعد تقنية الآلة البخارية، انتقل الإنتاج والاتصال والمواصلات إلى استخدام الطاقة الكهربائية، وقد أدَّت إلى طفرة وتغير كبير في المجتمعات.
- الثورة الصناعية **الثالثة**: عام 1969م، اختراع الحاسوب ونقل أول رسالة عن طريق الإنترنت، ودخول الحواسيب في معظم مناحي التصنيع والاتصالات والتعليم.
- الثورة الصناعية **الرابعة**: وهي المرحلة المبتدَأة حاليًا، حيث ظهرت تقنيات الذكاء الصناعي (Artificial Intelligence) والأحجام الضخمة من المعلومات (Big Data) (الروبوتات، وتعليم الآلات، وتقنية النانو، والتحكُّم في الجينات، والانتاج ثلاثي الأبعاد من خلال تطبيق الطباعة الثلاثية الابعاد في الصناعة والإنتاج (D-printing)، و التقنية الحيوية.)

الثورات الصناعية الأربعة

وهذا تأصيل فني للثورات الصناعية الأربعة التي وَسَمت التاريخ البشري الحديث، لتدرك أثر كلٍّ منها على حياتنا المجتمعية والعلمية والسياسية والاقتصادية، ومن كلِّ هذا تتبصَّر للقادم. [2]

(1) الثورة الصناعية، https://ar.wikipedia.org/، بتصرف.

(2) ماذا تعرف عن الثورة الصناعية الرابعة؟ المصادر: https://www.economist.com، https://www2.deloitte.com، http://reports.weforum.org، http://www.skwirk.com،https://www.weforum.org، https://www.forbes.com، https://www.raconteur.net، https://medium.com، https://www.iol.co.za، http://rishi-kumanan.tripod.com، بتصرف.

أولاً: الثورات الصناعية الثلاث

تتميَّز كلُّ واحدة من الثورات الصناعية الثلاث السابقة باختراقٍ تكنولوجيٍ أو علميٍ كبير، أحدث نقلةً في أنماط الاقتصاد والإنتاج، ثمَّ في الحياة الاجتماعية والفردية، وعلاقة الإنسان بالطبيعة والأشياء على مستوى العالم بأجمعه.

1. **الثورة الصناعية الأولى:** تُعد هذه الثورة انقطاعاً كبيراً عن تاريخٍ طويلٍ من نمط حياةٍ وإنتاجٍ وعلاقاتٍ بدائية استمرت لآلاف السنين، إلى أحوالٍ أخرى مختلفة، وقد حصلت بفعل اختراع المحرِّك البخاري في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وهو آلةٌ تستخدم قوة البخار لأداء عملٍ ميكانيكيٍ بواسطة الحرارة. وكانت النتائج الثلاث الكبرى لذلك:

- تحوُّل كبير من الاعتماد الواسع على طاقة الحيوانات والجهد العضلي للبشر والكتلة الحيوية للطاقة (الحطب وغيره)، إلى استخدام الطاقة الميكانيكية والوقود الأحفوري، كالفحم الحجري في ذلك الوقت، ونتج عن ذلك أنْ بدأت الآلات التي تعمل بالبخار تحُلُّ محلَّ اليد العاملة.
- أدَّت هذه الاختراقات الكبيرة، من منظور ذلك الزمان، إلى نموٍّ كبير في صناعات الفحمِ والحديد وسكك الحديد والنسيج.
- أدَّى التوسع في هذه الصناعات الكبيرة إلى تدهور نمط الإنتاج التقليدي السابق في الأرياف، والهجرة منها، فبدأنا نشهد في هذه الفترة توسع المدن وتقسيم العمل.

2. **الثورة الصناعية الثانية:** أحدثتها الكهرباء والإنتاج الشامل في خطوط التجميع في أواخر القرن التاسع عشر. وتميَّزت بأنَّها فتحت الأبواب أمام كثير من الاكتشافات والاختراعات الكبيرة الأخرى. ومن أبرز معالمها:

- ظهور محرِّك الاحتراق الداخلي الذي أحدث ثورة في صناعة النقل، كالسيارات والطائرات وغيرها.

- حلول البترول كمصـــدر أساسي للطاقة محل أنواعها الأخرى.
- إنتاج السلع الاستهلاكية بكميات كبيرة، ونشوء ما يعرف بالمجتمع الاستهلاكي.

3. **الثورة الصناعية الثالثة:** أحدثتها الرقمنة (Digitization) والمعالِجات الدقيقة والإنترنت وبرمجة الآلات والشبكات في النصف الثاني من القرن العشرين. ومن ميزاتها:

- ظهور الكمبيوتر الذي أحدث ثورةً في تخزين المعلومات ومعالجتها.
- برمجة الآلة ورقمنتها، ما جعلها تَحُلُّ شيئاً فشيئاً محل اليد العاملة ابتداءً من ثمَّانينيات القرن العشرين.
- أحدث انتشار شبكة الإنترنت في كل أنحاء العالم ثورة في عالم الاتصالات.
- أدَّى التطور في خوادم (Servers) الكمبيوتر وقدراتها المتنامية باستمرار على تخزين المعلومات ومعالجتها إلى صعود المنصَّات الرقمية العملاقة (فايسبوك، تويتر، غوغل)، وانتشار مواقع التواصل الاجتماعية التي أثَّرت على العلاقات الاجتماعية التقليدية.

النتائج الأساسية للثورات السابقة

- انخفاض أسعار السلع الاستهلاكية وزيادة جودتها نتيجة القيمة المضافـــة التي أدخلتها الآلة في عملية الإنتاج.
- الطلب الكبير على اليد العاملة، الذي استمر بالنموِّ منذ الثورة الصناعية الأولى حتى الرُّبع الأخير من القرن العشرين.
- أدَّى هذا إلى زيادة مداخيل فئات معظم الشرائح الاجتماعية وزيادة قوَّة شرائها.

- إنَّ التناقض بين ارتفاع أسعار العمالة وانخفاض أسعار السلع مردُّه إلى ارتفاع الإنتاجيــة وذلك نتيجة الابتكارات التكنولوجية والعلمية المتواصلة دون انقطاع.
- سمح ذلك بتوسع كبير في حجم المستهلكين، وتمكّن معظم سكّان الكرة الأرضية من شراء سلع لم تكن لتخطر على بالهم والتمتُّع بها.
- شهدت هذه الفترة هجرات كبيرة، من الأرياف إلى المدن، ومن الدول المتأخِّرة إلى المتقدمة، لم يسبق لها مثيل في ضخامتها عبر التاريخ.

ثانياً: الثورة الصناعية الرابعة

تنطلق الثورة الصناعية الرابعة من الإنجازات الكبيرة التي حققتها الثورة الثالثة، خاصة شبكة الإنترنت وطاقة المعالجة (Processing) الهائلة، والقدرة على تخزين المعلومات، والإمكانات غير المحدودة للوصول إلى المعرفة. فهذه الإنجازات تفتح اليوم الأبواب أمام احتمالات لامحدودة من خلال الاختراقات الكبيرة لتكنولوجيات ناشئة في مجال الذكاء الاصطناعي، والروبوتات، وإنترنت الأشياء، والمركبات ذاتية القيادة، والطباعة ثلاثية الأبعاد، وتكنولوجيا النانو، والتكنولوجيا الحيوية، وعلم المواد، والحوسبة الكمومية [(1)]، وسلسلة الكتل [(2)] (Blockchain)، وغيرها.

وبعبارةٍ سهلة: الثورة الصناعية الثالثة تمثِّل الرقمنة البسيطة، أمَّا الرابعة فتمثِّل الرقمنة الإبداعية القائمة على مزيجٍ من الاختراقات التقنية المتفاعلة تكافلياً عن طريق خوارزميات مبتكَرة.

---

(1) مفهوم الحوسبة الكمومية: يمكن القول بأنها نموذجٌ حوسبيٌّ نظريٌّ يتم من خلاله معالجة البيانات وعمليات الحوسبة من خلال قوانين الكم، فوحدة البيانات الأساسية التي تستخدم في الحوسبة التقليدية، والتي تسمى البت تم استبدالها بوحدة بياناتٍ أخرى تدعى البت الكمومي (qubit) الذي يستند إلى الذرات والتراكيب الجزيئية المتناهية الدقة. أما **الفرق بين الوحدتين** هو أن البت يعطي واحدةً من قيمتين؛ إما 0 أو 1، ولذلك يسمى الثنائية، بينما البت الكمومي فسيعطي عدة قيمٍ هي إما 0 أو 1، أو التراكب بين 0 و 1، وهذا يعني أن الكومبيوتر الكمومي لن يعتمد أسلوبًا محددًا في عمله وستكون هناك نتائجُ وحلولٌ عديدةٌ لكل حالةٍ، وهذه القيم الجديدة الناتجة عن التراكب بين 0 و 1 ستكون مبهمةً بالنسبة للحواسيب التقليدية. المهندس سعيد عطا الله، ما هي الحوسبة الكمومية، Quantum Computing، www.techopedia.com.

(2) قنية سلسلة الكتل "البلوك تشين" هي إحدى التقنيات التي أتاحها التوزيع العالمي لقدرة الحوسبة. ببساطة، تقنية سلسلة الكتل "البلوك تشين" هي دفتر الأستاذ الرقمي الذي يتم فيه تسجيل المعاملات. على سبيل المثال، يتم تسجيل عملة البيتكوين والعملة المشفّرة زمنياً وبشكل علني. https://www.un.org/ar/44863.

مميزاتها:

- دمج التقنيات المادية والرقمية والبيولوجية، وطمس الخطوط الفاصلة بينها.
- على الرغم من اعتماد هذه الثورة على البنية التحتية وتقنيات الثورة الصناعية الثالثة، إلا أنّها تقترح طرقاً جديدةً تماماً، بحيث تصبح التكنولوجيا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع وحتى من أجسامنا البشرية كأفرادٍ، مثل:
   - المدن الذكية وارتباط حركة الفرد والمجتمع بالشبكة وتكنولوجيا الفضاء الخارجي.
   - تقنيات التعديل الجيني.
   - التعلُّم المتعمق للآلة والأشكال الجديدة للذكاء الاصطناعي.
   - مقاربات جديدة للحوكمة تعتمد على طرق تشفير مبتكرة مثل سلسلة الكتل(Blockchain) .
   - اندماج أكبر للخيارات الفردية والجماعية للناس، بحيث:
      - لن تكون خيارات الباحثين والمصممين والمخترعين هي فقط ما يطوِّر التقنيات الجديدة.
      - يصبح المستثمِّرون والمستهلكون والمواطنون الذين يتبنُّون ويستخدمون هذه التقنيات في الحياة اليومية، شركاء في صنعها وتطويرها.

هذه النبذة السريعة عن التقدُّم البشري تأخَّر وصولها لعالمنا الإسلامي أقلَّه نصف قرن من الزمان. فأدركت الدولة العثمَّانية قبل نهايتها، نهايات الثورة الصناعية الأولى، فأنجزت في مجال سكَّة الحديد. أمَّا عالمنا الإسلامي بدُوَلِه السبعة والخمسين، فلم يستيقظ من كثير كبواته إلا وقد فاتته الثورة الصناعية الثانية تقريباً، وعملوا على استدراك منجزاتها خلال الثورة الصناعية الثالثة، فأضحينا أقلّ من مستهلكين للدول

المتقدمة، بل زبائن للمتروك والمستبدل من الصناعات والمنجزات التي أضحت لا تحاكي ما هم مُقدِمين عليه.

غير أنَّ شباب الأمّة الرافضَ للخنوع والمُحَارَبَ جُلُّه من بيئته، التي تحيا الماضي في الواقع، بدل أن يكون من ذكرياتهم، هجر التخلُّف في عقله، قبل أن يغادر بلدانه إلى دول العالم المتقدِّم، فشارَكوا وأضافُوا وأبدَعوا حيث حلُّوا، فغيَّروا من نظرة الآخرين إلينا، وقلَّلوا بعلاقاتهم ووعيهم الفجوات الزمنية بين واقع مجتمعاتنا والمجتمعات الأولى علمياً وصناعياً وتقنياً، فأضحى الاستيراد يواكب حديث المنتجات بعد أن كان يسبح على شاطئ المخلَّفات العلمية المتروكة.

والحال هذه وما سيكون عليه الزمان القادم بين أيديكم يا بنيَّ، فتدارك السرَّ ونقطة الارتكاز في التفكير والتخطيط في بناء مجتمعك، وأدقَّ نقطة حوَّلت تفكير أبناء العالم الأول "الاقتصاد"، فمن تمكَّن منه أدار السياسة، وجمع الثروة، وبرمج المجتمع، وربّى الأجيال.

وأعلمْ أنَّه لا يعجزك أن تواكبَهم، ثمَّ تتقدَّمهم، إنْ رتَّبتم الأولويَّات، ونظرتم بفَأْلٍ للمستقبل المجرَّد من أثقال الماضي المتحجِّر، المشوَّه، المشوب بكلِّ فتنة واقتتال داخل المجتمع والذات.

التحدي الثقافي

وأَختمُ أنَّ للثقافة ميدانٌ واسع تستطيع من خلال الإطلال على جوانب عدة من حياة المجتمعات. فأحرصْ على العِلم والثقافة وحُسن نشرها. وأعلمْ أنَّ كثيراً من الغيورين على المجتمع وأهله، من أصحاب الأصوات الصاخبة، إضافتهم ؟! نقصان لبلدانهم وأديانهم. ففَنُّ الحديث ومهارة تسويق الأفكار، وتوطيدها، ثمَّ توطينها، أنفع إنسانياً وأربح مجتمعياً، فالنُّفوس مجبولةٌ على حُبِّ الإحسان إليها.

وأعلمْ أنَّ جائزة نوبل واحدة لمخترع أو منجز تعود على دولته ودينه وعرقه، بأوسع ممَّا تعود عليه الحملات الإعلانية والإعلامية المليارية.

وأحرصْ على معادلة:

العلم، ثمَّ العلم، ثمَّ العلم = إنجاز يضيف للإنسانية.

هَمسةٌ في أُذُنِ ابنَتي

يا بنيَّتي، صِغْتُ العنوان ولغة الخطاب في هذه الوصية، بصيغةِ ابنك، وأخيك وأبيك، وشريكك متعمِّداً، كونَك الصَّانع والشريك الحقيقي غير المرئي. ولكن قريباً، ستتصدَّرين المشهد وتكوني القائدة المباشرة. فاهضمي ما ذكرتُ، وأحسني توظيفه، وأنا أثقُ بفكرِكِ، وقدرتِكِ، وعزيمتِكِ، وإرادتِكِ، ثمَّ إدارتِكِ.